من تراب الطريق (٤١٨)

بودلير(*) وأزهار الشر

من مآثر الشاعر عبد الرحمن صدقى ، أنه مع كتابه القيم عن الشاعر الرجيم شارل بودلير ، ترجم لنا أشعاره من ديوان أزهار الشر ..عن هذا العمل الضافى ، كنت قد قدمت لصوت العرب ، من نصف قرن ، حلقة درامية عن الشاعر وشعره .. فى برنامج «أدب وأدباء» الذى أخرجه آنذاك المرحوم مراد كامل ..

لماذا سمى ديوانه بأزهار الشر ، وأُطلق عليه : الشاعر الرجيم ؟! هل هو رجيم حقًا ، وهل أزهاره أزهار شر ؟! .. لقد تركت الإجابة لشعره ، وتركت المجال لصوت يتنادى فى «الصدى» بأشعاره :

أيها القارئ المطمئن الوادع
يارجل الخير ، السليم الطوية ، القانع
اطرح من يدك هذا الكتاب
هذا الكتاب المستهتر الفاجع

***

إذا كنت لم تتلقن فنون البيان
على النقيب الماكر الشيطان
فاطرح كتابى ، فلست واعيا منه شيئا
أو أنت معتقد بى لوثة العقل والخيال

(*) المال ١٠/ ٣/ ٢٠١٠ .

أمّـا إذا استطاع طرفك ـ غـير مفتون ـ
أن يـــمـــعـــن فى الأغـــــــوار
ويـــغـــوص فى الـــلـــجـة إلى الـــقـــرار
إذًا فـــاقـــرأنـــى تـــتـــعـــلـــم محبتى

ربما اندهش المتلقى من طمع الشاعر أن ينال محبته أو محبة الناس ، بينما كان هو الحريص فى حياته على لقب «الشاعر الرجيم» .. فهل هو رجيم فعلًا ، أم أن ذلك شبيه بحرص توفيق الحكيم على لقب «عدو المرأة» ، ولم يكن أبدًا لها عدوًا !! يجيبنا شعر بودلير :

يـــا أيـــتـــهـــا الـــنـــفـــس المـــتـــطـــلـــعـــة
أنـــــت يـــا مـــن تـــألـــين الـــوجـــود
وتحـومـين باحثةً عـن فـردوسـك المفقود
إرثـــى لى ! ... وإلاّ عليك لعنتى !!

فهل سيرة حياة شارل بودلير تستحضر اللعنات ؟ لقد تولد لديه اعتقاد من الصغر بأنه كان نكبة لأمّه التى أتاها ميلاده بمسخٍ شائه قوض ما تنشده كل أم أن ترزق بطفلٍ جميل ..هو لذلك يرى أن ميلاده كان قضاءً حَمَّ بأمه ، فيقول :

لمـا حـمّ القضاء الـذى لا راد لحكمه..
وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكليلة برغمه
ريعت أمّه ، وأخرجها السخط عن طبيعتها
فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء راثية لنكبتها
آه ، ليتنى كنتُ قد ولدْت وكُرًا كاملًا من الحيات

ولم أكن والدة هذا المسخ دون سائر الوالدات ،
ملعونة ، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر ،
تلك الليلة التى فيها حملت بطنى العاقر .
بمن كان ميلاده كالقصاص منى
تكفيرًا عن أكبر الكبائر ..

ما كاد الطفل يطل على الحياة ، حتى فقد أباه ، وشاكسته الأيام لتشبعه شقاءً وعذابًا وضنكا .. ما كاد يستوعب رحيل أبيه ، حتى فاجأته أمه بأنها ترغب فى الزواج من ضابط شاب صديق للأسرة ، يصغرها سنًّا .. دون أن تأبه بتحفظاته التى أطلقها على استحياء ، فانطلقت أشعاره شجية حزينة .

إنى لأتمثل أمك، ياوليدهذاالعصر الخسيس، القليل الخير
أتمثلها فى حرصها على إصلاح ما أفسد الدهر .
عاكفة على مرآتها تحكم الطلاء الأبيض على صدرها .
ذلك الصدر الذى أرضعك .

ولكنه على كل ما حاول أن يتجرعه ، صار ضيفًا ثقيلا بالبيت على العروسين ، فدفعا به فى رحلة على السفينة «بحار الجنوب «التي أقلعت من ميناء بوردو بقيادة ربان صديق حميم لزوج أمه ، ميممة فى المحيط شطر سيلان والهند وكلكتا .. لم يدر البحارة أن مشاعر الصبى الشاعر سوف تتأذى من فرحهم بصيد أحد طيور «القطرس» .. وهو طائر ضخم من مرتبة الطيور البحرية الأنبوبية الأنف .. تركهم الصبى فى صخبهم الفرح بالطائر الأسير المعذب ، وطفق ينشد :

كان الملاحون كثيرًا ما يلهون

فيقنصون طيور البحر العظام
وهى تابعة مستسلمة مسترسلة كرفيق الطريق
فى صحبة السفينة المنسابة فوق لجج الخضم السحيق..
فما هو إلاّ أن أهوى بعضها على أرض المركب
حتى رأينا هذا الملك من ملوك الأجواء فى حال شوهاء
وأجنحته البيض الطوال مسلوبة الكبرياء
يجرها إلى جانبيه كالمجاديف
ذلكم فارس الهواء، ما أسمج ما صار إليه، وما أهونه .

***

كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء ، بأمير الأجواء
يقتحم العواصف ولا يبالى الرماة وهو فى أوج السماء
ولكنه على الأرض غريب طريد، ومعرض استهزاء وهوان
يمشى متعثر الخطو ، يعوقه عن المشى ، جناحاه الجبارا..

***

هذا الشاعر البائس لم تفسح له الحياة ، فطارده الموت وهو فى الأربعين ، لا يرى ما يراه الناس أن حياته قصيرة ، فهى عنده طويلة بطول ما عاناه فيها .. ينشد فى حزن :

أنا الجرح والسكين
أنا الطاعن والطعين
ياموت..أيها الملاك المحنك، الموكل بسفر الأرواح
آن الأوان . فارفع المراسى ، وهيِّئ لنا الرحيل

مللنا المقام هنا ـ يا موت ! ... فعجّلْ الرواح
وإن يكن ـ أيها الملاح ! ـ قداذلهم أمامك البحر والسماء
فإن نفوسنا التى ألمت بها ـ يشع منها الضياء

*****